

تأثير المسافة الجمالية على تفاعل المتلقين في قصيدة (مالم تقله زرقاء اليمامة) على ضوء نظرية الاستقبال



This work is licensed under a

Creative Commons Attribution-
NonCommercial 4.0
International License.

عهود منصور حجازي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الملك عبد العزيز،

جدة، المملكة العربية السعودية

نشر إلكترونياً بتاريخ: ١٣ فبراير ٢٠٢٤م

تُعرف المسافة الجمالية بأنها المسافة التي تفصل بين

أفق النص وأفق توقعات القارئ الخاصة به، فإن توافق الأفق كان النص عادياً، وإن كان مخيباً لأفق القارئ شكّل عملاً فنياً له قيمته، وبين عليه القارئ أفقاً جديداً. وفي قصيدة عبد الباري التي احتارها الدراسة، ذُكر بأن الشاعر تنبأ بحدوث أمور لم تكن في حسابان الفرد العربي، فكانت أبيات النبوءة على عكس المتوقع. بدلاً من البشارة والتفاؤل، متجهة إلى

* المقدمة

ظهرت قصيدة (ما لم تقله زرقاء اليمامة) (1) عام 2013هـ للشاعر السوداني محمد عبدالباري (2) في مقطع مرئي على موقع يوتيوب، ولقيت وقتها استحساناً محدوداً، لكنها سرعان ما انتشرت، وتناقلها الجمهور باهتمام، فنتج عن تفاعلهم معها أشكالاً عديدة، متأثرة بما عُرف بالمسافة الجمالية، أحد مصطلحات نظرية التلقي.

ثلاثة دواوين: (مرثية النار الأولى 2013م)، (كأنك لم.. 2014م) كما أصدر ديواناً ثالثاً هو (الأهلة 2016م). ينظر عبد العزيز إبراهيم، من هو محمد عبد الباري صاحب ما لم تقله زرقاء اليمامة؟، العربية نت، 2019/03/21م. ومحمد عبد الباري، ديوان كأنك لم..، ط2، (الإمارات العربية المتحدة: دار مدارك للنشر، 2014م).

(1) محمد بن عبد الله عبد الباري، مرثية النار الأولى، (لبنان: توزيع منتدى المعارف، ديت) 9-15
(2) شاعر سوداني، ولد في المناقل_السودان عام 1985م، ترعرع في مدينة الرياض السعودية، حصل على البكالوريوس في آداب اللغة العربية، ثم درس الماجستير في الجامعة الأردنية في الشعر في تراث فلاسفة الإسلام وعلماء الكلام. حصل على عدد من الجوائز الأدبية، له

الواقعية السوداوية. وهذه الصدمة سببت كسراً لآفاق السامعين، واتساعاً في المقابل للمسافة الجمالية بين توقعاتهم وبين أفق النص، ما منحها أبعاداً مختلفة في تفاعلهم معها. إذ التفاعل والقراءة عمليتان علاجيتان للقارئ بحسب نورمان هولاند، فهذه العملية يمكن للمتلقي اكتشاف موضوع الهوية التي تخصه، والتعرف على دوافعه وذاتيته ورغبته، ما يعني انتقال الرغبة إلى وعي القارئ ولا وعيه من خلال النص⁽³⁾. تهدف هذه الدراسة إلى بيان تأثير المسافة الجمالية على تفاعل المتلقين على ضوء نظرية الاستقبال في قصيدة (ما لم تقله زرقاء اليمامة)، والتي لقيت تفاعلاً مثمرًا في أوساط المستقبلين على اختلاف ثقافتهم، مع محاولة الإجابة على سؤال لماذا حازت هذه القصيدة على الخصوص اهتمام المتلقي؟

يتقدم الدراسة استفتاح تنظيري مبسّط لماهية نظرية الاستقبال، ومصطلحاتها، وأهم رموزها، ويتوسطها الجانب التطبيقي، ثم تُختتم بخلاصة شاملة لأهم النتائج.

* نظرية التلقي

تعدّ نظرية التلقي الألمانية Reception theory من أهم نظريات ما بعد الحداثة، والتي ظهرت عام

1960م، نتيجة لتطورات فكرية وأدبية واجتماعية معتمدة بشكل أساسي على المتلقي، وذلك بعد أن اهتمت النظريات السابقة بالمؤلف، متمثلة في المناهج الاجتماعية والتاريخية والنفسية، تلاها التركيز على النص، متحسداً في النقد البنوي وما في حكمه، ثم جاء دور القارئ، فظهرت نظرية التلقي أو الاستقبال، فأعدت له اعتباره بعد إغفال المناهج السياقية والنسقية له⁽⁴⁾.

تتم هذه النظرية بالقارئ وتعامله مع النص، بغض النظر عن النص وشخصية المؤلف، بل تركز على ما يثير القارئ والدور الذي يؤديه في إتمام النص. جديرٌ بالذكر تفضيل النقاد العرب لمصطلح التلقي على مصطلح الاستقبال، لأن الاستقبال برغم موافقته للترجمة الواقعية يشير إلى متعلقات لفظية فندقية⁽⁵⁾.

انطلقت نظرية التلقي من جامعة كونستانس الألمانية Universität Konstanz على يد اثنين وضعوا أسس عملية التلقي، هما فولفجانج آيزر Iser (1926-2007) وهانز يابوس Jauss (1921-1997)⁽⁶⁾.

يرى آيزر بأن العمل الفني يشتمل على قطبين هما الفني والجمالي، ويهتم بنظرية التأثير والاتصال المؤكدة على

(5) ينظر عزة محمد أو النجاة، قراءة لقصيدة الجبل لابن خفاجة في ضوء نظرية التلقي، مجلة كلية الآداب، جامعة بورسعيد_ كلية الآداب، عدد 6، يوليو، 2015م، 367-353، 361
(6) فنديسي خيرة، التفاعل بين النص والقارئ، قراءة في نظرية جمالية التلقي لدى يابوس وإيزر، مجلة النص، يناير 2014م، 256

(3) ينظر ميجان الرويلي وسعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، ط3، (المغرب: المركز الثقافي العربي، 2002م) 335
(4) ينظر روبرت هولب، نظرية التلقي، مقدمة نقدية، ترجمة عز الدين إسماعيل، (مصر: المكتبة الأكاديمية، 2000م) 11-9

٣- حلقة براغ اللسانية (Prague Linguistic Circle)

اعتبر علماء هذه الحلقة أن الأدب رسالة إلى جانب كونه موضوعاً جمالياً، ولم يفصلوا بنية العمل الأدبي عن السياق التاريخي، كما ركزت هذه المدرسة على اعتبار العمل الأدبي منظومة من العلاقات الشكلية⁽¹²⁾.

٤- التأويلية (Hermeneutics)

طوّر غادامير (Gadamer 1900-2002م) مصطلحين مهمين في عملية التلقي هما التاريخ العملي وأفق الفهم، مركزاً على العلاقة التي تربط المتلقي بالعمل الأدبي، كما أشار إلى أن المحيط الاجتماعي والنفسي يؤثران في المتلقي، ويوجهان وعيه التفسيري للعمل، وهذا ما أفادت منه نظرية التلقي⁽¹³⁾.

دور القارئ والنص معاً⁽⁷⁾، أما يابوس فاهتم بالموضوعات التي تحمل طابعاً اجتماعياً أو تاريخياً بغرض التأريخ للنظرية الجمالية⁽⁸⁾ ومثل الاتجاه المعروف بنظرية التلقي والتقبل، مؤكداً على دور القارئ في خلق المعنى الأدبي⁽⁹⁾. وتتطلب نظرية التلقي قارئاً متميزاً ذو ثقافة عميقة وخبرة طويلة، تتيح له سبر أغوار النص الأدبي والوقوف على أسراره وجمالياته.

* الأصول المعرفية لنظرية التلقي

١- الشكلانية الروسية (Russian Formalism)

وجهت هذه المدرسة الأنظار إلى العلاقة بين النص والقارئ، وذلك عن طريق توسيع مفهوم الشكل ليشمل الإدراك الجمالي⁽¹⁰⁾.

٢- الفلسفة الظاهرية (Phenomenology)

ركزت على الماهيات الجوهرية للأشياء من خلال الوقائع التجريبية⁽¹¹⁾، وتطرقت إلى ملء الفجوات والفرغات في النص من أجل اكتمال العمل الأدبي، وتعدّ الفجوات من أهم المفاهيم التي حفلت بها نظرية التلقي.

(10) ينظر كلارا سروجي شجراوي، نظرية الاستقبال في الرواية العربية الحديثة، (أكاديمية القاسمي- باقة الغربية، مجمع القاسمي للغة العربية وآدابها، 2011م)، 20
(11) ينظر نبيل راغب، موسوعة النظريات الأدبية، (مصر: الشركة المصرية العالمية للنشر، لونغمان، 2003م) 428
(12) ينظر نبيل راغب، مرجع سابق، 583
(13) ينظر روبرت هولب، مرجع سابق، 104

(7) ينظر صالح هويدي، المناهج النقدية الحديثة، أسئلة ومقاربات، (سوريا: دار نينوى للنشر والتوزيع، 2015م) 138.
(8) ينظر عثمانى عبد المالك، نظريات التلقي عند يابوس وأيزر، مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية، مجلد 5، عدد 10، يونيو 2017م، 297
(9) ينظر صالح هويدي، مرجع سابق، 138.

٥- علم اجتماع الأدب (Sociology of Literature)

اهتمت نظرية الأدب بالمتلقي والظروف الاجتماعية التي تم فيها التلقي، ولا يمكن تجاهل أن العناية الحقيقية للقارئ قد ظهرت واعية بمقاصدها في نطاق علم اجتماع الأدب⁽¹⁴⁾.

* مفاهيم نظرية جمالية التلقي ومصطلحاتها

١- فعل القراءة (the Act of reading)

أعدت جمالية التلقي الاعتبار لمفهوم القراءة، فهي شرط أساسي لكل عمليات التأويل الأدبي، وتختلف القراءة بحسب شيئين: طبيعة القراء ونوعيتهم، وطبيعة النص الأدبي. وهي بحسب النظرية قراءة مفتوحة غير مغلقة، يرى ياوس بأن القراءة تفرض على المتلقي خلاف غيرها، فهو ناظر إلى النص بأكثر من عين وليس بعين واحدة، وقراءته هذه أهم ما فيها هو إحصار عيون النص وإدراك وعيه، معتبراً ان القراءة فعلاً تحاورياً بين النص والمتلقي⁽¹⁵⁾.

٢- القارئ الضمني (The implied reader)

القارئ الضمني هو القارئ المفترض الذي يضعه الكاتب نصب عينه أثناء عملية الكتابة، وقبلها وبعدها، حيث يستمر تأثير هذا القارئ على جميع مراحل التأليف، يقابله القارئ الحقيقي المتفاعل من خلال مرجعياته المتعددة⁽¹⁶⁾.

(14) ينظر عبدالناصر حسن محمد، نظرية التوصيل وقراءة النص الأدبي، (مصر: المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، د.ت) 71-72 (15) قاسم الموني، نحو تأسيس مفهوم معاصر لقراءة النص الأدبي، مجلة كلية التربية، عدد 15، جامعة عين شمس، 1991م، 72

٣- أفق الانتظار أو أفق التوقع (Waiting horizon)

وهو أحد مصطلحات ياوس في جمالية التلقي، ويعني أن المتلقي يقبل على العمل متوقفاً لنهاية ما في سيرورة النص، وهناك ثلاث عوامل أساسية عند ياوس تساهم في تكوين أفق التوقعات عند المتلقي، هي: التجنيس، التناس، والتخييل.

ويعرف أفق الانتظار بأنه (جهاز عقلي يسجل الانحراف والتحويلات بحساسية مفرطة)⁽¹⁷⁾. ويمكن أن توافق لنهاية النص توقع القارئ، ويمكن أن تخالفه، لكن متعة النص تكمن في المخالفة وليس التوافق، لما تحققه المخالفة من مفاجأة.

٤- المسافة الجمالية (The Aesthetic Distance)

هي الفرق بين كتابة المؤلف وأفق توقع القارئ، ويمكن الحصول عليها من استقراء ردود أفعال القراء على الأثر، أي من الأحكام النقدية التي يطلقونها عليها. والآثار الأدبية الجيدة هي التي تمتي انتظار الجمهور بالخيبة، إذ الآثار التي ترضي القراء هي آثار عادية لأنها نماذج معتادة. يشار إلى أن المسافة الجمالية قائمة على مفهوم التغير، أي استخدام اللغة بشكل غير مألوف⁽¹⁸⁾.

٥- الفجوات (enclaves)

أي الفجوات التي يتركها المؤلف للقارئ من أجل ملئها اعتماداً على خياله، فيساهم بذلك في إتمام معنى العمل

(16) ينظر أشجان محمد هندي، تجليات القصيدة الرقمية في المملكة العربية السعودية، (السعودية: نادي الأحساء الأدبي، 2020م) 17.

(17) روبرت هولب، مرجع سابق، 104.

(18) ينظر حسين الواد، في تأريخ الأدب مفاهيم ومناهج، ط2، (لبنان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1993م)، 77.

٨- وجهة النظر الجواله (wandering viewpoint)

يشير هذا المصطلح إلى تكوّن وجهة النظر من خلال متابعة القراءة وعمليات بناء المعنى وهدمه لبناء معنى جديد من خلال معطيات النص وخبرات المتلقي وثقافته والمرجعيات التي تضمنها النص (22).

* تفاعل المتلقيين مع قصيدة (مالم تقله زرقاء اليمامة) بحسب المسافة الجمالية فيها

تنوعت أشكال التفاعل مع القصيدة، وتخطت مشاهداتها منذ أول ظهور لها عام (2013م) مليون وأربعمئة مشاهدة حتى وقت كتابة الدراسة (23)، فنتج عنها كتاب نقدي، بحث محكم منشور، مقالات صحفية، رسم فني، مقابلات تلفزيونية وإذاعية، معارضة للأبيات مع اختلاف الموضوع، تحويلها إلى أغنية، إضافة إلى إدراجها في منهج الأدب والبلاغة للصف الثاني عشر في مدارس التعليم الفلسطيني (24).

(23) أقيمت القصيدة في صالون ميس الأدبي في مايو/2012م، ونشرت على اليوتيوب عام 2013م على قناة صالون ميس بعنوان (رائعة الشاعر محمد عبد الباري "ما لم تقله زرقاء اليمامة"- صالون ميس):

<https://www.youtube.com/watch?v=ZK4NYSPm1QM>

(24) ورد الخبر في تغريدة لخالد العرابي على موقع تويتر، مع صور للمنهج الدراسي:

الادبي، لأن النص بتلك الفجوات يعد ناقصاً حتى يأتي قارئ قادر على ملئها (19).

٦- التأويل (hermeneutics)

هو بيان معنى العمل الأدبي عبر فهمه، بالتركيز على مواطن الغموض التي تعذر فهمها في النص، وبيان أبعاد العمل الأدبي ومقاصده ككل بالاعتماد على اللغة. وهذا التأويل قائم على المتلقي لتفسير النصوص وفهمها والبحث عن المعاني المضمرّة فيها (20).

٧- السجل النصي (The text repertoire)

أن يتضمن النص إحالات خارجية يمكن للقارئ من خلالها بناء معنى النص، وهو مجموعة المعايير التي يلجأ إليها النص، وتكون معروفة لدى جمهور المتلقيين، والتي يخلق بواسطتها سياقاً مشتركاً بينه وبين القارئ، بحيث يتمكن القارئ من وصف ما لم يذكره النص صراحة (21).

(19) ينظر عبد الكريم شرفي، مرجع سابق، 221
(20) ينظر آرثر أيزنبرجر، النقد الثقافي، تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية، ترجمة: وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسي، (مصر: المشروع القومي للترجمة، 2003م) 55.

(21) ينظر عبد الكريم شرفي، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، (الجزائر: منشورات الاختلاف، 2007م) 193.

(22) ينظر صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر ومصطلحاته، (مصر: ميريت للنشر والمعلومات، 2002م) 156.

يعتبر هذا الكتاب تحقيقاً لرؤية إنغاردن Ingarden (1893-1970) في اعتبار عناصر العمل الأدبي مجرد معطيات جزئية غير متجسدة، إلى أن تُمنح الشخصية المميزة من خلال أفعال الوعي الخاصة بالقارئ، فالعمل الأدبي لا وجود له في الحقيقة إلا داخل القارئ المتأثر بهذا العمل (27).

فيما نشرت مشاعل بن جحلان مقالاً نقدياً عن التناص، متمثلاً في الرؤية الهندسية في القصيدة (28)، متناولة في دراستها التناص الشعري، فالتاريخي، فالأسطوري، ثم الديني المتضمن في الأبيات، مستنتجة بأن توظيف التناص في القصيدة أضفى عليها حيوية وديناميكية متجددة، إضافة إلى القيمة الجمالية ذات الوقع المؤثر على وجدان المتلقي وتدوُّقه، وإحداث تواصل مع النصوص الفكرية والثقافية، ما أدى إلى استثمار تلك الثقافات بأبعادها الدلالية، وإنتاج صور جديدة، منفتحة على التأويلات. ولكي تتحقق جمالية التناص في هذا المقال؛ يُشار إلى رؤية آيزر بأن النص لذاته عمل فيّ أبدعه الكاتب، لكن هذا النص لا يتكشف إلا بالدور الذي يقوم به المتلقي والذي يقوم بتحقيق النص (The achievement) من خلال نشاطه القرائي، ما يعني أنّ العمل الأدبي لا تكتمل حياته الإبداعية إلا عن طريق القراءة

(27) ينظر نبيل راغب، مرجع سابق، 434
(28) مشاعل بن جحلان، الرؤية الهندسية في نص (ما لم نقله زرقاء اليمامة)، مجلة فرقد الالكترونية، النادي الأدبي الثقافي بالطائف، عدد 15، 2018/10/27.

يعدّ الاستقبال مفهوماً جمالياً مشتقاً على الأثر الذي ينتجه العمل الفني، وعلى طريقة استقبال الجمهور له، كما أن ردود فعل الجمهور يمكن أن تظهر بصور متباينة لنفس العمل الأدبي الذي يمكن أن يتم استهلاكه أو انتقاده، أو تأويله تأويلاً معترفاً به، الأمر المدلل على أهمية دور القراء، ومقدرتهم على تشكيل تاريخ الأدب (25).

وقد لقيت القصيدة استقبالا متفاعلاً من الجمهور بسبب المسافة الجمالية الواسعة في القصيدة، والتي استخدمت التغير الأسلوبية في استخدام التراكيب والتلاعب بالصور، إضافة إلى التغير المعنوي في صياغة التنبؤات القادمة، وبسبب التناص الزمني لاحقاً مع أحداث ما يسمّى بالربيع العربي الذي تنبأت القصيدة بنتائجه.

فقد عنون رحمن غركان كتابه النقدي بـ(قصيدة النبوءة، أسلوبية الدوال والمعنى الشعري) (26) في دراسة دلالية أسلوبية للقصيدة التي رآها موظفة توظيفاً شعرياً للرمزية الكامنة في قصة النبي يعقوب وابنه يوسف -عليهما السلام - متكثراً في نقده على المسافة المقصودة في تجربة الشاعر والتي استشرّف بها القادم، فخلق جمالية أسلوبية، متناولاً في دراسته القصيدة من خلال فصول أربعة هي أسلوبية الدوال، الدوال الإيقاعية، الدوال التصويرية، والدوال البنائية.

<https://twitter.com/khalidalarabi/status/1039515580066279424?lang=eu>

(25) ينظر كلارا سروجي شجراوي، مرجع سابق، 14.
(26) رحمن غركان، قصيدة النبوءة، (سوريا: تموز للطباعة والنشر والتوزيع، 2020م).

وإعادة الإنتاج من جديد، لأن المؤلف ما هو إلا قارئ للأعمال السابقة التي تجمعت لديه عن طريق التناص، لذا فهو ليس مالِكاً أصلياً للنص⁽²⁹⁾.

كما ورد ذكر القصيدة في مقالة أدبية لمحمد سالم بعنوان (الحساسية الشعرية الجديدة، إرث محمود درويش)⁽³⁰⁾ في إشارة إلى معمارية القصيدة اللغوية والرمزية التي اقتطعت المعنى من سياقات مختلفة وإعادة صياغتها بحسب براعة الشاعر، مع منح المتلقي ومضات إشارية لفتح مغاليقها، ما يعني بشكل ما وجود فجوات في النص، يملؤها القارئ بحسب تصوّراته عن طريق التذكّر والتشويق بحسب بارت (Bart 1915-1985م)، ويتقدم القراءة "يستترف النص، وفي استنزافه تكمن اللذة، فيهتك القارئ حدود الفصل، وينشئ دلالة مودّعة في النص"⁽³¹⁾.

وكتب سامي العجلان⁽³²⁾ عن أسباب شهرة القصيدة مع أنها ليست أفضل قصائده بحسب تعبيره، مرجحاً أن تزامنها التاريخي مع الحدث الربيعي الصاعد جاء موفقاً،

(29) ينظر حبيب مونسى، فعل القراءة، النشأة والتحول، (الجزائر: منشورات دار الغرب، 2001م) 197.

(30) محمد ولد محمد سالم، الحساسية الشعري الجديدة، إرث محمود درويش، ملحق الخليج الثقافي، 2017/7/24م.

(31) عمر معراجي، موت المؤلف بداية التلقي، مجلة الصورة والاتصال، عدد 22، فبراير 2018م.

(32) سامي العجلان، النبوءة المسافرة في نهر الرؤى والحدهس، قراءة في شعر محمد عبد الباري (1)، صحيفة الجزيرة، 2016/6/4.

إضافة إلى استثمار الشاعر للآليات الفنية مثل (كرة البّور السحرية)⁽³³⁾ والمشهدية، مؤكداً على أن عنصر الجذب الأقوى كان في محاولة هتك حجاب المستقبل، ما نتج عنه إثارة فضول القراء.

وفي أمسية شعرية، ألقى الشاعر أحمد عبيد قصيدةً مُعَارِضةً للقصيدة الشهيرة بعنوان (ما قالته زرقاء اليمامة)⁽³⁴⁾، مع اختلاف الموضوع، واستخدام العنوان المنفي بصيغة الإثبات، إضافة إلى تحريك الألفاظ الثيمية⁽³⁵⁾ في قصيدة عبد الباري من مقصودها الاستشراقي إلى مقاصد عبيد المتعلقة بتمجيد العربية، بجامع ضياع العربية والربيع العربي على حد سواء.

كما لا يمكن تجاوز المقابلات التلفزيونية التي أجريت مع الشاعر إثر انتشار قصيدته، واحتفاء الجماهير بها، وتنوع أشكال التأثير بها وتأثيرها. أصطفي من تلك المقابلات استضافة قناة TRT العربية في برنامج (قهوة تركية) مع المذبةعة هاجر بن حسين، التي استفتحت الحلقة بقراءة أبيات

(33) عن بهذا التعبير استقرار المستقبل في كرة البّور مثل العرافين.

(34) ذلك ضمن نشاط منتدى الثلاثاء في احتفالية باليوم العالمي للغة العربية في بيت الشعر بدائرة الثقافة والإعلام بالشارقة، ينظر موقع دائرة الثقافة، خمسة شعراء يضيئون بيت الشعر بالشارقة احتفالاً باللغة العربية 2016/12/20م:

<https://www.sdc.gov.ae/Ar/NewsDetails/181/0>

(35) مثل: السّحر، الحلم، النبوءة، العيون، النّبأ.

ترميز لوجود فراغات، تحاول العين المخفية استقراءها من خلال قلب طريقة القراءة التقليدية لاستجلاء معاني غير نمطية من خلال النص المخفي الذي ينمو في مظهر آخر غير النص بحسب ستانلي فش Stanley Fish الذي ذهب إلى أنّ النص لا يسهم بشيء في التفسير، وإن كل شيء يعتمد على ما يجلبه القارئ له⁽³⁹⁾.

وانتقالاً من فن الرسم إلى فنّ الغناء، قدّم فيصل العمري⁽⁴⁰⁾ القصيدة معزوفة على آلة العود، ومُلحّنة على (مقام الراست) المستخدم في الأغاني التراثية، والذي خدم الاستدعاء التاريخي للحوادث العربية القديمة وما يتعلق بها من عبارات شهيرة وأعلام وأمثال، في جلسة منشورة على برنامج يوتيوب عام (2017م)، تمّت مشاهدتها 1.538 مرة حتى وقت كتابة هذه الدراسة، في تفاعل موسيقيّ للأبيات الشهيرة بين المؤدي والجمهور، ما منح القصيدة أبعاداً متنوعة

<https://twitter.com/ibecamethecolor/status/1067414424032632832>

⁽³⁹⁾ ينظر روبرت سي هول، نظرية الاستقبال مقدمة نقدية، ترجمة: رعد عبد الجليل جواد، (سوريا: دار الحوار للنشر والتوزيع، 1992م) 177

⁽⁴⁰⁾ عنوان (الفنان فيصل العمري يغني قصيدة عبد الباري شيء بطلّ الآن) (2017/03/24م):

<https://www.youtube.com/watch?v=CztTH9s9vbK>

القصيدة، ومتخيرة تساؤلات مهمة في توجّه القصيدة وموضوعاتها كأحد المتلقين، متسائلة عن المراد من هذه القصيدة، في توقع استباقي لما تمثله لها الثقافة الحاضرة وانتظار المتواري في إجابة الشاعر⁽³⁶⁾، ما يستدعي إلى الذهن مستوى القراءة الذي طرحه أمبرتو إيكو Umberto Eco (1932-2016م)، وهي القراءة المفتوحة من طرف القارئ الواعي أو العليم بحسب آيزر، للنص المفتوح أي المنفتح على كافة الدلالات والتأويلات، وهذه القراءة هي أسّ نظرية التلقي⁽³⁷⁾.

يُشار أيضاً إلى انتقال القصيدة إلى حقل الفنون البصرية⁽³⁸⁾، من باب التعبير عن الإعجاب بثيمة مخصصة في الأبيات، هي ثيمة الاستشراق، متمثلة في استدعاء عيني زرقاء اليمامة، مع استبدال الدمع المكتوب بالدمعة المرسومة، وبسببها من عين مغطّاة بالأبيات المطبوعة بطريقة عكسية في

⁽³⁶⁾ برنامج قهوة تركية، محمد عبد الباري، على قناة Us Yapim 1202015/05م:

<https://www.youtube.com/watch?v=kQsXc5EY2c0>

⁽³⁷⁾ ينظر أمبرتو إيكو، الأثر المفتوح، ترجمة: عبد الرحمن بو علي، ط2، (سوريا: دار الحوار للنشر والتوزيع، 2001م) 7-9
⁽³⁸⁾ عمل بصري من تنفيذ ملوك محمد، نشرته على موقع تويتر بعنوان (أحتاج دمع الأنبياء لكي أرى) (2018/11/27م):

وداخل أطر مرتبطة بثقافة وزمن⁽⁴⁴⁾. إن إحداهن الصدمة للمتلقى يتضمن كسراً للأفق المتوقع عنده، بالتالي اتساع المسافة الجمالية، وقيام وعي جديد إثر تلك الصدمة.

لقد تكونت المسافة الياوسية _نسبة إلى ياوس_ في هذه القصيدة على مستويين: مستوى لغوي ومستوى زميني.

على المستوى اللغوي، استحدث الشاعر تعبيرات جديدة من تراكيب وألفاظ راسخة في الثقافة العربية بحمولتها الدلالية، مع تحويل دلالتها إلى مقاصد الأبيات، مثل (تفاحة آدم، طوفان نوح، شجرة الخلد، عند الصباح سيحمد القوم السرى، قطعن أيديهن، سبع عجاف، قميص يوسف) وغيرها. وفي استخدام هذه الموروثات الثقافية إنزياحات استبدالية وتركيبية، في توظيف مغاير لما وُضعت له، هذا الأمر تسبب في صدمة بادئ الأمر، تبعه استعذاب للرؤية، والتماهي معها، باستحداث ناص مبتكر، كان عاملاً أساسياً في جذب انتباه المتلقي.

إن إعادة بناء النص الأدبي وفك شفراته متوقف على تجربة القارئ وخبرته القرائية وتوقعاته، إضافة إلى معرفته

للاستقبال، تتضمن الآلات الوترية، وما يصدر عن السامعين من تأوهات، وإعادة لأواخر الكلمات في قفلة الجملة الموسيقية التي تُعتبر في الموسيقى العربية من أبرز مواطن التأثير⁽⁴¹⁾، كما تجدر الإشارة إلى أن لذة الأنغام أو فسادها تتعلق بمنتج الصوت، وكذلك بالمتن الصوتي المختار، ما يجعل المستمع ملتذاً باستماعه⁽⁴²⁾.

وللإجابة على تساؤل البحث المتمحور حول أسباب حيازة القصيدة على اهتمام المتلقين، يمكن الاستعانة بإجابة الشاعر نفسه في مقابلة مرئية له، حين قال: "أن تكتب نصاً يصفق له الناس ليس أمراً معقداً، ولكن أن تكتب نصاً يحافظ أولاً على شرطه الفني، وقادر على التأثير في حياة الناس، سواء في أفكارهم أو في عواطفهم، فهذه قضية شديدة الحساسية"⁽⁴³⁾

ومن إجابة الشاعر يمكن صياغة السؤال الذي سيقود إلى قلب الدراسة: لماذا هي قضية شديدة الحساسية؟ ستكون إجابة البحث لأهما تخلق صدمات مؤثرة على الوعي من ناحيتين: ناحية لغوية، إذ الأدب كائن من لغة، يعمل على تطويرها وتحديثها، وناحية فكرية، تتأثر بالأدب في تأسيسها وتحولها، كما أن الأدب كائن جمالي بحسب مقاييس معينة

(43) برنامج خواصي الكلام، حلقة محمد عبد الباري، قناة Tele Liban Official على يوتيوب، دقيقة 49:34، 2017/09/18م: <https://www.youtube.com/watch?v=OdEA9J5cHjU>

(44) ينظر حسين الواد، مرجع سابق، 84

(41) ينظر صالح المهدي، مقامات الموسيقى العربية، د.ط، (تونس:

المعهد الرشدي للموسيقى التونسية، د.ت) 111

(42) ينظر عبد الحميد زاهيد، علم الأصوات وعلم الموسيقى، دراسة صوتية مقارنة، (الأردن: دار يافا العلمية للنشر والتوزيع، 2010م)

بالنصوص الأخرى، والأنواع الأدبية، والاتجاهات الأسلوبية⁽⁴⁵⁾.

وعلى المستوى الزمني، يُشار إلى أن أول ظهور للقصيدة كان عام 2013م، في حين أن التفاعلات الجماهيرية معها كانت متأخرة بعدة أعوام. يمكن تفسير الأمر بحدوث خيبة لدى المتلقين في وقت استقبالهم للقصيدة، لاصطدامها بحاجز نفسي اسمه الألفة⁽⁴⁶⁾، فالقارئ يتأثر بسياق النص وظروف تلقيه، وحين تنبأ الشاعر بانقلاب نتائج الربيع العربي إلى الخسارة، أدى ذلك إلى كسر أفق توقعات الجمهور البعيدة عن آفاق النص، ومن ثم تحققهم من صحة النبوءة بعد ذلك بفترة زمنية، فتكونت لديهم الرؤية الجديدة، وعبروا عن تفاعلهم معها بكافة طرق التعبير. إن حدوث الوقع الجمالي في هذا السياق استند على الزمن الذي أطر عملية القراءة، فكان الانجذاب للنص مبيّن على وقت محدد كان القارئ فيه متهيأ لتذوق النص والتفاعل مع مكوناته⁽⁴⁷⁾.

إنّ مصطلح جمالية التلقي يؤكد هنا على استقبال الجمهور لهذا المنتج الأدبي، كما يؤكد مصطلح جمالية الأثر على قدرة وقع النص المائل في القصيدة، مركزاً على التفاعل المختلف بين المتلقين والنص الأدبي⁽⁴⁸⁾.

في ختام هذه الدراسة، أمكن التوصل إلى النتائج

الآتية:-

١- تبيّدت أهمية القراء، ومقدّرهم على تشكيل تاريخ الأدب، من خلال الأثر الذي تركه العمل الفني عليهم، بإنتاج ردود أفعال معتبرة ومؤثرة على جميع الأصعدة لنفس العمل الأدبي.

٢- وُجد أن التغريب الأسلوبي والمعنويّ في القصيدة قد ساهم في خلق مسافة جمالية، تسببت في كسر أفق التوقع لدى المتلقين، ما أدى إلى خلق تفاعل متنوّع الهوية معها.

٣- اعتُبرت عناصر العمل الأدبي مجرد معطيات غير متجسدة، إلى أن مُنحت شخصيتها المميزة من خلال أفعال الوعي الخاصة بالقراء، إذ لا وجود للعمل الأدبي في الحقيقة إلا داخل القارئ المتأثر بهذا العمل.

٤- أدت جمالية التناص في القصيدة إلى المساهمة في كسر توقع المتلقين، من خلال استدعاء الشاعر للثقافة الشعبية وتوظيفها بصورة خارجة عن المؤلف، ما أدى إلى اتساع المسافة الجمالية بين الأفقين: أفق النص وأفق المتلقي.

٥- نشوء دلالات جديدة على النص جاء نتيجة لاستترافه بتقدّم القراءة المفتوحة من قبل القارئ العليم، من ثم حدوث اللذة التي أدت إلى خلق دلالة إبداعية.

٦- إثارة فضول القراء بمحاولة هتك حجاب المستقبل في القصيدة ساهم في محاولات تفكيك رموزها الحدسية بالتحليل والتناول الفني.

(45) ينظر صلاح فضل، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، (مصر: دار الشروق، 1998م) 205.

(46) هذا التعبير مستقى من مقابلة الشاعر في برنامج قهوة تركية على يوتيوب، سبق ذكره.

(47) ينظر عثمانى عبد المالك، مرجع سابق، 298.

(48) ينظر إليزابيث فروند، القارئ المشاء، فولفجانج إيزر وجمالية التلقي، ترجمة أحمد الكبداني، مجلة نوافذ، السعودية، عدد 41، 1 سبتمبر 2012م، 77.

برنامج قهوة تركية، محمد عبد الباري، على قناة Us
1202015/05 Yapim م.

بن جحلان، مشاعل، الرؤية الحدسية في نص (ما لم تقله زرقاء
اليمامة)، مجلة فرقد الالكترونية، النادي الأدبي
الثقافي بالطائف، عدد 15، 2018/10/27.

حسن محمد، عبد الناصر، نظرية التوصيل وقراءة النص
الأدبي، (مصر: المكتب المصري لتوزيع المطبوعات،
د.ت).

خيرة، قنيسي، التفاعل بين النص والقارئ، قراءة في نظرية
جمالية التلقي لدى ياوس وآيزر، مجلة النص، يناير
2014 م.

راغب، نبيل، موسوعة النظريات الأدبية، (مصر: الشركة
المصرية العالمية للنشر، لونهايمان، 2003 م).
الرويلي، ميجان والبازعي، سعد، دليل الناقد الأدبي، ط3،
(المغرب: المركز الثقافي العربي، 2002 م).

زاهيد، عبد الحميد، علم الأصوات وعلم الموسيقى، دراسة
صوتية مقارنة، (الأردن: دار يافا العلمية للنشر
والتوزيع، 2010 م).

سالم، محمد ولد محمد، الحساسية الشعري الجديدة، إرث
محمود درويش، ملحق الخليج الثقافي،
2017/7/24 م.

سي هول، روبرت، نظرية الاستقبال مقدمة نقدية، ترجمة:
رعد عبد الجليل جواد، (سوريا: دار الحوار للنشر
والتوزيع، 1992 م).

شجراوي، كلارا سروجي، نظرية الاستقبال في الرواية العربية
الحديثة، (أكاديمية القاسمي - باقة الغربية، مجمع
القاسمي للغة العربية وآدابها، 2011 م).

٧- يعتمد استظهار النص المخفي على القراءة غير التقليدية،
ويمكن تجسيده في مظاهر أخرى غير نصية، مثل الفنون
البصرية والسمعية.

٨- أسهمت المعاني المتجددة في القصيدة في إمداد الموسيقى
بمنتج صوتي متضمن لجماليات التأثير من ناحية فنية ولغوية،
إضافة لملاستها للهمم الشعبي في تناص زميني، منح الأغنية
أبعاداً ثقافية.

٩- كان اتساع المسافة الجمالية في القصيدة قائماً على
إحداث صدمة لغوية وفكرية وجمالية، متسبباً في تخييب أفق
المتلقي، من ثم حدوث ردة فعل على الأفق المتكوّن الجديد.

* المراجع

إبراهيم، عبد العزيز، من هو محمد عبد الباري صاحب ما لم
تقله زرقاء اليمامة؟، العربية نت،
2019/03/21 م.

أبو النجاة، عزة محمد، قراءة لقصيدة الجبل لابن خفاجة في
ضوء نظرية التلقي، مجلة كلية الآداب، جامعة
بورسعيد - كلية الآداب، عدد 6، يوليو،
2015 م، 353-367.

أيزابجر، آرثر، النقد الثقافي، تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية،
ترجمة: وفاء إبراهيم ومضان بسطاويسي، (مصر:
المشروع القومي للترجمة، 2003 م).

إيكو، أمبرتو، الأثر المفتوح، ترجمة: عبد الرحمن بو علي،
ط2، (سوريا: دار الحوار للنشر والتوزيع،
2001 م).

برنامج خوايي الكلام، حلقة محمد عبد الباري، قناة Tele
Liban Official على يوتيوب،
2017/09/18 م.

موقع تويتر.
موقع دائرة الثقافة.
الموني، قاسم، نحو تأسيس مفهوم معاصر لقراءة النص الأدبي،
مجلة كلية التربية، عدد 15، جامعة عين شمس،
1991م.
هندي، أشجان محمد، تجليات القصيدة الرقمية في المملكة
العربية السعودية، (السعودية: نادي الأحساء
الأدبي، 2020م).
هولب، روبرت، نظرية التلقي، مقدمة نقدية، ترجمة عزالدين
إسماعيل، (مصر: المكتبة الأكاديمية، 2000م).
هويدي، صالح، المناهج النقدية الحديثة، أسئلة ومقاربات،
(سوريا: دار نينوى للنشر والتوزيع، 2015م).
الواد، حسين، في تأريخ الأدب مفاهيم ومناهج، ط2، (لبنان:
المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1993م).

شرفي، عبد الكريم، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة،
(الجزائر: منشورات الاختلاف، 2007م).
عبد الباري، محمد بن عبد الله، مراثية النار الأولى، (لبنان:
توزيع منتدى المعارف، د.ت).
عبد الباري، محمد، ديوان كأنك لم..، ط2، (الإمارات
العربية المتحدة: دار مدارك للنشر، 2014م).
عثماني عبد المالك، نظريات التلقي عند يابوس وآيزر، مجلة
الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية، مجلد 5، عدد
10، يونيو 2017م.
العجلان، سامي النبوة المسافرة في نهر الرؤى والحدس، قراءة
في شعر محمد عبد الباري (1)، صحيفة الجزيرة،
2016/6/4.
غركان، رحمن، قصيدة النبوة، (سوريا: تموز للطباعة والنشر
والتوزيع، 2020م).
فروند، إليزابيث، القارئ المشاء، فولفجانج إيزر وجمالية
التلقي، ترجمة أحمد الكبداني، مجلة نوافذ، السعودية،
عدد 41، 1 سبتمبر 2012م.
فضل، صلاح، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، (مصر: دار
الشروق، 1998م).
فضل، صلاح، مناهج النقد المعاصر ومصطلحاته، (مصر:
ميريت للنشر والمعلومات، 2002م).
معراجي، عمر، موت المؤلف بداية التلقي، مجلة الصورة
والاتصال، عدد 22، فبراير 2018م.
المهدي، صالح، مقامات الموسيقى العربية، د.ط، (تونس:
المعهد الرشيد للموسيقى التونسية، د.ت).
مونسي، حبيب، فعل القراءة، النشأة والتحول، (الجزائر:
منشورات دار الغرب، 2001م).